**خصائص التربية النبويَّة**

الشيخ محمد الشاذلي النيفر

وصلاته وسلامه على أشرف المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين

المعلم الكامل:

أرسل الله سبحانه وتعالى النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم كما جاء في محكم كتابه إخباراً عن دعوة إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: 129].

شرحت الآية الكريمة المقصود من البعثة: وهي التربية والتعليم فإنَّ إبراهيم عليه السلام لما عهد الله له ببناء البيت العتيق ورفع قواعده دعا إلى الله تعالى بدعوة جامعة بين الأمرين الأساسيين في الدين وهما:

الاستسلام لأمر الله والخضوع لطاعته، وعدم الإشراك في الطاعة أحداً سواه وفي العبادة غيره، وخلاصة ذلك الإخلاص لله في الطاعة والعبادة.

وتربية الأمم والأجيال القادمة تربية جامعة لا مغمز فيها، ترتفع بالأمم، وتأخذ بأيديهم إلى الارتقاء.

فالتكوين التربوي شاءه الله تعالى، كما وضَّحته الخطوات التي حَيَتْها البشرية: فأنبأت أنَّ الطبيعة التي تكوَّنت، وتربَّت بها الأجيال منذ الأحقاب الأولى أنَّ الإنسانيَّة متصاعدة ابتدأت بالدرجة الأولى ثم أخذت تتصاعد شيئاً فشيئاً فهي مُكتملة بحسب دورها الذي تعيش فيه ثم هي تعطي للجيل المُوالي ما يُضيفه إلى من بعده.

فإبراهيم عليه السلام، ما كان في طور من أطوار الإنسانيَّة دعا الله أن يبعث رسولاً يعلم الناس ويزكيهم تطلعاً إلى درجة غير الدرجة التي هو فيها.

فكان من دعوة إبراهيم أن الإنسانيَّة لها أمران تقوم عليهما كما يقوم الإنسان بجسده على رجلين، والأمران المقام عليهما الإنسانيَّة هما:

العبادة والطاعة لله، وهي أمر مؤسَّس على الإخلاص لله في طاعته والقيام بالتوجه إليه بالصلاة والصيام والزكاة وغير ذلك.

فالدين من ناحية التوحيد وتعظيم الله سبحانه لم يختلف دين عن دين فالقدر المشترك بين الأنبياء العبادة لله وحدَه لا شريك له مع اختلاف في الشرائع والمناهج، وثبت عنه صلى الله عليه وآله وسلم قوله: (نَحْنُ مَعْشَرَ الْأَنْبِيَاءِ أَوْلَادُ عَلَّاتٍ دِينُنَا وَاحِدٌ) [رواه ابن كثير في تفسيره ج4 ص 117 أولاد العلات: الذين أمهاتهم مختلفة وأبوهم واحد. أراد أن إيمانهم واحد وشرائعهم مختلفة].

والتعليم والتربية للأمم لتنهج المناهج الصحيحة. والتعليم والتربية اللذان دعا إبراهيم الله بأن يبعث نبياً خاتماً يقوم بها عامَّانِ في العبادة، وتعليم الخير ليفعل، وتعليم الشر ليتقى. فتعليم الكتاب القرآن، وتعليم الحكمة الحديث، والتزكية التطهير والإصلاح.

امتياز التربية الدينية:

ولتكون التربية الدينيَّة على الوجه المبني عليه البناء الذي أراده الله تعالى خصَّ سبحانه خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله وسلم بتربية ذات خصائص لا يمكن لعقل بشري مهما أوتي من الذكاء والفطنة أن يأتي بمثلها، فالعقل الممتاز يستطيع أن تتفتح له آفاق في ميادين شتى إلا أنَّه في خصوص ما جاء به الإسلام في عجز لأنَّ الدين المبني على التربية هو من خصائص الشرائع المنزَّلة من ربِّ السموات والأرض، ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: 88].

فالقرآن كما عجزت الإنس والجن على مُحاكاته في فصاحته وحُسن نظمه: كذلك هم عاجزون على الإتيان بمثل مبادئه الجامعة لكل ما تحتاج إليه الإنسانيَّة ومبادئ القرآن هي التي تمثَّلت في النبي صلى الله عليه وآله وسلم إظهاراً لبيان أنَّ تلك المبادئ ليست نظريَّات مجرَّدة لا تطبق بل هي مطبَّقة في تلك التربية التي مثَّلها الله جلَّ جلاله في نبيِّه حتى تكون ممثَّلة في الذين التأموا حول النبي صلى الله عليه وآله وسلم لتظهر فيهم، ثم يتناقلها خلف عن سلف.

الرسالة النبويَّة تربية:

يتضح مما تقدَّم أنَّ بعثة النبي صلى الله عليه وآله وسلم في دعوة إبراهيم عليه السلام تعليم وتزكية للمبعوث إليهم.

وما دعا به إبراهيم استجيب له، وهو ختم الرسالات بخاتم الأنبياء بدعوة عامَّة شاملة تُكيِّف المعتنقين لها، وتربيتهم الصحيحة النافعة.

فالرسالة تربية وتعليم كما جاء عنه صلى الله عليه وآله وسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: (إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم) رواه أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجة وابن حبان.

أشار في هذا الحديث إلى أنَّ الخصائص الإنسانيَّة في التربية ليست من قبل الغرائز كالحيوان: بل هي موقوفة على من كان سبباً في وجوده وهما الأبوان: فلذلك كان التعليم منهما وخاصة الوالد هو الدرجة الأولى في التعليم، والتعليم الأبوي الذي هو الصنف الأول من التعليم تولاه أيضاً النبي صلى الله عليه وآله وسلم حتى في بسائط الأمور لإخراج النشأة الصالحة المستجمعة للتربية بحذافيرها.

فالذي يتولاه الأبوان قد تولاه النبي صلى الله عليه وآله وسلم. وليست تربية النبي صلى الله عليه وآله وسلم مقصورة على ما يربِّي به الأبوان ابنهما من الأمور الأوليَّة، وإنما هي تربية تشمل مجموع الإنسان في أخلاقه وسلوكه، وإدارة نفسه الإدارة النافعة وغير ذلك.

وهو ما أخبر عنه صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق). رواه الحاكم في المستدرك، والبخاري في الأدب المفرد وغيرهما، فالحديث يشير إلى أن التربية الكاملة هي التي بُعث بها النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

وبهذا امتاز الإسلام عن غيره فأصبح ديناً ممكّناً له في الأرض، يأتي بالخير من منابعه، ويدفع بالشر دفعاً حتى لا يصيب من توقَّاه.

العناية بالتربية النبويَّة:

فكل ما جاء به النبي صلى الله عليه وآله وسلم تربية كما أفاده ونقله لنا علماء الحديث لكن منهم من نظر إليه من الناحية التربويَّة، ومنهم من نظر إليه نظراً أعم، فهذا البخاري الإمام الحافظ (256) نظر إلى الحديث من الناحية الأولى فجمع الكثير من هذه التربية في كتاب خاص، وهو الأدب المفرد، ذلك الكتاب الجامع في التربية النبويَّة.

وصنع فيه صنع حكيم حين ابتدأه بالأدب النبويِّ في تربية الأبناء مع الآباء فاستهلَّه بالأحاديث الداعية والمربّية للمرء مع أبويه أمه وأبيه. فكانت طالعة كتابه حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه الذي سأل فيه النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن أيِّ الأعمال التي هي أحب إلى الله تعالى، فأخبره صلى الله عليه وآله وسلم بأنه (الصلاة على وقتها). ثم سأله عما بعده، فأجابه صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: (ثم بر الوالدين). ثم سأله عما بعد هذا، فأجابه صلى الله عليه وآله وسلم (ثم الجهاد في سبيل الله).

ثم اعتنى بالتربية النبويَّة اعتناءً خاصَّاً فجمع فأوعى وأتى بها مشمولة الأطراف، ومجموعة سائغة - ابن قيم الجوزية (751) في كتابه: (زاد المعاد في هدي خير العباد).

وما استهلَّ به كتابه ما ذكره من الاحتياج الأكيد إلى التربية النبويَّة في هديها الساطع.

(فصل)

ومن هنا تعلم اضطرار العباد فوق كل ضرورة إلى معرفة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وما جاء به. وتصديقه فيما أخبر به، وطاعته فيما أمر به، فإنه لا سبيل إلى السعادة والفلاح لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا على أيدي الرسل، ولا سبيل إلى معرفة الطيب والخبيث على التفصيل إلا من جهتهم ولا ينال رضا الله البتَّة إلا على أيديهم فالطيب من الأعمال والأقوال والأخلاق ليس إلا هديهم وما جاءوا به، فهم الميزان الراجح الذي على أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم توزن الأقوال والأخلاق والأعمال، ومتابعتهم يتميز أهل الهدى من أهل الضلال. فالضرورة إليهم أعظم من ضرورة البدن إلى روحه والعين إلى نورها والروح إلى حياتها.

فأي ضرورة وحاجة فرضت بضرورة العبد، فحاجته إلى الرسل فوقها كثير وما ظنّك بمن إذا غاب عنك هديه، وما جاء به طرفة عين فسد قلبك، وصار كالحوت إذا فارق الماء ووضع في المقلاة. فحال العبد عند مفارقة قلبه لما جاء به الرسل هذه الحال، بل أعظم، ولكن لا يحسُّ بهذا إلا قلب حي و(ما لجرحٍ بميتٍ إيلامُ).

وإذا كانت سعادة العبد في الدارين معلَّقة بهدي النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيجب على كل من نصح نفسه، وأحب نجاتها وسعادتها أن يعرف من هديه وسيرته وشأنه ما يخرج به عن الجاهلين، ويدخل به في عداد أتباعه وشيعته وحزبه. والناس في هذا بين مستقل ومستكثر ومحروم، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم. [ زاد المعاد ج1 ص15].

جاءت كلمة ابن القيم في زاد المعاد تحريضاً على التربية النبويَّة، دعوة حارة لارتسام خطاها، واتباع هداها وبياناً واضحاً من أنها أوكد المؤكدات، حتى من الحياة التي هي أثمن وأعز ما يحافظ عليه الحريص على نفسه.

ليست التربية النبويَّة مقصورة على هذين الكتابين بل كتب السنة كلها شارحة ومبيِّنة للتربية النبويَّة، وإنما الأدب المفرد للبخاري، وزاد المعاد لابن القيم أبرزا التربية النبويَّة في صورتها الواضحة فاستحقا أن يكونا أبرز المؤلفات في الناحية التربويَّة للرسالة العظيمة، وهي الناحية الأولى ويبرز لنا الغوص العميق أنَّ القرآن تربية إذ هو هداية، وما الهداية إلا تربية وتنبيه للعقول، وإيقاظ الأفهام فقد جاء بعد حمد الله وتمجيده والاستعانة به قوله: ﴿الٓمٓ١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ٢﴾[البقرة:1-2] فالقرآن أصل التربية الإسلاميَّة إذ ركَّز فيه وبيَّن ما يقوم عليه العمل الصالح.

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: 9]، فهو كالشمس التي تستمدُّ منها الحرارة التي هي الطاقة للحياة، فالقرآن الطاقة الحراريَّة للحياة القويَّة الهادفة لإصلاح الإنسان في نفسه وإصلاح المجتمع، فبدونه تتخبَّط المجتمعات خبطَ عشواء كما هي عليه اليوم، كلما أرادوا إصلاحا بدا لهم مهوى عميق مخيف.

خصائص التربية النبويَّة:

تمتاز التربية النبويَّة بميزات تكاد لا تنحصر: لأنها كلما تعمَّق فيها الناظر بدت له خصائص ناطقة بما تمتاز به، فالخصائص التربويَّة النبويَّة تدعو الباحث فيها أن يخصَّها بتأليف خاص إبرازاً للتربية الممتازة الضرورية للحياة الصحيحة المستقيمة ونجتزئ في الكلمة المقدمة اليوم ببعض الخصائص التي هي كالعنوان لغيرها، فمن أبرز الخصائص للتربية النبويَّة أنها عامَّة في كل الحالات التي يتقلَّب فيها الأفراد.

من ذلك هديه القويم صلى الله عليه وآله وسلم في الحالات الطبيعيَّة كالأكل والنوم والانتباه واللباس والمشي والجلوس والبيع والشراء وغير ذلك.

وهو ما جاء في كتب الشمائل النبويَّة المتمثل فيها التربية النبويَّة في تنظيم الأحوال الطبيعية للإنسان، ولهذا قال صلى الله عليه وآله وسلم كما تقدَّم: (إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم).

وهديه في العبادات في الطهارات والصلاة والزكاة والصوم والحج هدى على هدى.

وفي هديه في العبادات تربية اقتصاديَّة مثل ما جاء في الحديث من أنه صلى الله عليه وآله وسلم مرَّ على سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وهو يتوضأ فقال له: (ما هذا السرف؟ فقال له وهل في الماء من إسراف؟ قال: نعم، وان كنت على نهر) [عن عمر بن سعد أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مر بعد الحديث وهو في ابن ماجة ج1ص147].

في التربية النبويَّة اغتنام الفرص لإبداء لفت الفكر إلى نوع من التربية كما جاء في الحديث المتقدم: فإنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم حين رأى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يسرف في الماء حين وضوئه استفهم عن إسرافه فنتج عن تساؤله عن الإسراف في الماء تساؤل سعد عن كون الماء يكون فيه إسراف؛ فأجابه النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأن الماء فيه إسراف ولو كان المتوضئ على نهر جارٍ.

وفي التساؤل بينهما من بديع الحكمة ما يعزُّ نظيره وهو أنَّ الماء مادَّة حيوية وإن توفَّر بين الأيدي لا ينبغي الإسراف فيه.

بقي إذا لم يسرف المستعمل للماء فما وراء ذلك؟

ما وراء ذلك غفل عنه الكثير في استنباطه من الحديث، وهو أننا إذا لم نسرف فيه نحافظ عليه لمصالح أخرى.

نحافظ عليه فلا نتركه ينساب سبهللا، بل نفكر كيف نستفيد منه استفادات متعددة وهو ما أهمله الكثير فأضاعوا الاستفادة من الماء لا في عصورنا الذهبية، وإنما في عصور التقهقر التي أعرض الكثير فيها عن الإسلام إما جهلاً وإما استعاضة بغيره.

وفي الدعوة إلى عدم الإسراف في الماء دعوة صارخة إلى الاقتصاد في الاستعمال في كل ما نستعمله، والاقتصاد الذي يشير إليه الحديث هو أن المستعمل لا يستعمل الشيء إلا بقدر حاجته، فيما اعتاده المعتادون من التبذير للأشياء دون استفادة منها هو ما حذرنا منه النبي صلى الله عليه وآله وسلم ونبهنا تنبيهاً حكيماً كيف نستعمل ما هو من ضروريتنا في هذه الحياة.

وقد تنبَّه الغرب اليوم إلى النهي عن الإسراف في مادة الوقود حين اضطرتهم الحاجة وهو ما نادى به الإسلام منذ قرون.

في التربية العائلية:

وهديه في حياته العائلية نموذج من أعلى النماذج التي يعيشها الزوجان: فحياته صلى الله عليه وآله وسلم جاءت أتمّ حياة زوجيَّة بصورة ممتازة غير التي يظنها الناس، يظنون أنَّ رغادة الحياة الزوجية تكون بالإسراف على الزوجة في المأكل والمشرب والملبس، والنزهة والقصور والخدم.

ويظن غير هؤلاء أنَّ السعادة بالاستخذاء للمرأة وتحكّمها في شؤونه ومن نماذجه ما وقع لبعض الأمراء الذين حكَّموا نساءهم في شؤونهم فآلت حالهم إلى أسوأ حال.

ويظن فريقٌ أنَّ هناء البيت في الشدَّة مع المرأة ومعاملتها المعاملة القاسية. الشديدة امتلاكاً لزمام البيت فتصبح المرأة لا جدوى لها في الحياة البيتية، ويسبب ذلك القضاء على المدرسة البيتية للأبناء.

كل نظرات في التربية الزوجيَّة غير صائبة وهي خواطئ، وليس في هذه الخواطئ سهم صائب، وإنما الصائب ما جاء من مثاليته الزوجية منه صلى الله عليه وآله وسلم سواء في سيرته البيتيَّة الكريمة، أو دعوته للصحابة في معاملة الأهل.

ومن ذلك ما جاء عن عائشة رضي الله عنها، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم دعا إلى الإحسان إلى الأهل في قوله: (خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي). رواه عن عائشة الترمذي: ورواه عن ابن عباس ابن ماجة.

حذَّر هذا الحديث الصحيح من أن تكون القسوة الركيزة التي تقام عليها العلاقة بين الرجل وزوجته، وكذلك بينه وبين أقاربه. وضَّح النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنَّ خير الناس هو خيركم لأهله، وهو ما أدَّبه عليه ربه تعالى فكان مثالاً عاليا في الخيرية للأهل بالمعنى العام والخاص وإنما جاءت هذه الدعوة الحارَّة إلى ذلك لأنَّ العلاقة بين المرء وزوجه إذا لم تكن كما أرادها الإسلام وعاشها النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم تكن علاقة ورابطة بين أساسي البيت الأب والأم وإنما هي قيد يجمع بين رجل وامرأة.

واذا كان البناء البيتي على أنَّه قيد يتقيَّد به الرجل مع زوجه، لا يقوم مُجتمع ولا يدوم إلا إلى أمد قريب حتى تظهر فيه المحطات للمجتمع، وبذلك يتدهور في ظلمات بعضها فوق بعض.

والعجب كيف يسيء البعض إلى زوجته والله يقول في محكم كتابه: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فإنَّ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 19].

فلا ينبغي للزوج أن ينساق لبادرةِ الكراهة لزوجه فعساه إن كره منها خلقاً حمد آخر كما جاء عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يفرك - لا يبغض - مؤمن مؤمنة، إن سخط منها خلقا رضي آخر». [ذكره ابن ماجة].

وقد أوجب الإمام مالك رضي الله عنه على الرجل أن يتحبَّب لا إلى زوجته فقط بل أوجب عليه أن يتحبَّب إلى أهل داره حتى يكون أحب الناس إليهم.

ومن القدوة مما يؤخذ من السيرة النبويَّة في الإفساح للزوجة في إبداء رأيها دون أن تكون مسلوبة من إعطاء رأيها أنَّه كانت أزواجه تراجعه الكلام الحديث، وهو من حديث متفق عليه من الشيخين البخاري ومسلم.

وأشعرت المعاملة النبويَّة الممتازة الصحابيات بأنَّ لهنَّ حق المراجعة، كما ثبت أنَّ إمرأة عمر رضي الله عنه راجعته في الكلام، فقال: أتراجعيني؟ فقالت: إنَّ أزواج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يراجعنه، وهو خيرٌ منك.

وحصل بحسن خلقه الكريم أنَّ زوجاته كنَّ صالحات يردن اللهَ ورسوله، ولم يحصل ذلك بعيش المترفين الذين يظنون أنهم بالعيش المترف البالغ حدَّ الإسراف يجتذبون ودَّ زوجاتهم.

فبسيرته في بيته الشريف النموذج الذي ينبغي أن يؤنسهم في الحياة الزوجية ففيه الاعتدال في المعاملة والمعاشرة بالمعروف، مما هو من السيرة المرضية من الله تعالى ورسوله: وهو النطاق الحكيم الذي حدَّده الشرع الناظر للمصالح بعين تجمع المصلحة من أطرافها دون أن يشذَّ عنها شيء ما.

وبالتربية النبويَّة للزوجة تربية فائقة أصبحت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها في درجة من العلم والمعرفة، فأخذ عنها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الكثير من حياته الهادفة إلى الإصلاح ما أصبح مصدراً للتشريع، ومنبعاً للمعرفة، روی ابن عبد البر في الاستيعاب عن عطاء بن أبي رباح أنه قال: كانت عائشة رضي الله عنها أفقه الناس، وأحسن الناس، وأعلم الناس رأياً في العامَّة.

وقال هشام بن عروة عن أبيه: ما رأيت أحداً أعلم بفقه، ولا بطب، ولا بشعر من عائشة.

وعن مسروق رأيت مشیخة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الأكابر يسألونها عن الفرائض؛ أعطانا عطاء بن رباح جملة موجزة غاية الإيجاز في التعريف بعائشة رضي الله عنها من أدقِّ ما يعرف به، وهي أنها أعلم الناس رأياً في العامَّة.

ومعنى هذه الجملة على أحد الاحتمالات فيما تفيده وهي أنها أعرف النساء بالعامَّة، والمعرفة الدقيقة بالعامَّة، أمر عزيز على العقول لا تستطيعه إلا العقول النيِّرة.

ومن معاني هذه الجملة نستفيد أنَّ الرأي في العامَّة لا يتأتّى لكل أحد وإنما هو من مميزات خواص الخواص ونستفيد من هذه الجملة معنى آخر، وهو أنها أعلم الناس بحسب الرأي في عامة الناس دون تخصیص ببعض منهم.

رضي الله عنها، كانت أعمق معرفة بالنفسيات المختلفة المتباينة المشارب كما هو متعارف في نفسيات العامة، شخصية القيادة الفذة.

في أصول السياسة:

تكمن الهداية النبويَّة الكبرى في قيادته الجامعة لمعنى العظمة لا عظمة الكبرياء، وإنما عظمة كمال الصفات المطلوبة في القائد الذي تجتمع حوله القلوب لتكون على الخير معوانة، ولتصبح ذات قيادة حكيمة حين تتبوَّأ مقام الخلافة.

فهو الشخصيَّة الفذَّة الكاملة التي ألقت إليها قلوب الناس عامَّة بزمامها فملأت نفوسهم روعة من نوع خاص، وهي روعة المحبة الناتجة عن اقتناع الضمير فإنه منفرد في كمالاته المؤهلة له للتقدم وأخذ أعنَّة القلوب، وليست الروعة من قبيل المتعارف وهي الروعة المفروضة على الأفئدة والأدمغة بتكييف الحياة. وإحاطتها بسياج من الأعوان، وفرض أحكام تدخل الرعب.

والهداية النبويَّة في سياسة الأمور، وإدارة دفتها تعليم اللذين يتبوأون رعاية شؤون الأمم لأنَّه كذلك يصدر منه ما يكون تربية للقادة وتنويراً للأبصار في سياسة الناس، فهو وإن بلغ أقصى الدرجات، وكان في منزلة لا يدانيه فيها مدان في مظهر بشري يدعو للاقتداء.

وقد نطق الكتاب الكريم بما يفيد أنه ذاتية تعليمية يأخذ منها كل أحد بحسبه في الناحية المبتغاة له: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: 21].

فهذه الآية أصل كبير في التأسي واتباع النبي صلى الله عليه وآله وسلم في كل أحواله وأفعاله وأقواله، فهو القدوة العظمى في سائر الفضائل وشتى التكوينات الإنسانيَّة فيغترف المغترفون من فضائله ما يكون لهم رائداً في حياتهم، أي حياة كان نوعها.

وظهر منه المظهر البشري فيما يلزم القائد المخلص، والسياسي المحنَّك فيما رواه الترمذي في كتاب الشمائل عن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال سألت خالي هند بن أبي هالة، وكان وصَّافاً: فقلت: صف لي منطق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم متواصل الأحزان دائم الفكرة، ليست له راحة، طويل السكت، لا يتكلم في غير حاجة. [هند بن أبي هالة هو: هند بن أبي هالة ربيب النبي صلى الله عليه وآله وسلم، أمه خديجة زوج النبي صلى الله عليه وآله وسلم. قتل يوم الجمل].

أتی وصف هند بن أبي هالة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم موضحاً لما يلزم أن يكون عليه متولي أمر الأمَّة من كونه متواصل الأحزان مع إدامة التفكير مع فقدان الراحة، إنما كانت هذه الصفات لمتولي أمر الأمَّة لما نوضحه من معناها وضروريتها.

فتواصل الأحزان المراد به التيقظ لما يستقبله من الأمور فالليالي حبالى يلدن كلَّ عجیب، فضبط الأمور ضبطاً يكفُل للأمَّة الراحة يستدعي من السائس أن يكون على حذر وأن يكون مُستيقظاً لما يحدث حتى لا تباغته الحوادث بالكوارث، وأن يكون قد أعدَّ لكل مشكلة حلاً وبذلك تنعم الأمَّة، وتصبح في أرغد حياة.

فالتيقُّظ والحيطة منه تربى بها خلفاؤه الراشدون وبذلك أصبحت الأمَّة الإسلاميَّة تغنم كل يوم غُنماً في القوة والتمكن في الأرض بأسباب التمكن القوية.

فسياسته المشروعة جمعت ما تحتاجه السياسة الحكيمة من كونها تفتح على الأمَّة بما يهديها ويسدد خطاها ويشد عضدها، ويضيء لها سبيل الرشد مع قوة تردع الباطل، وتكفُّ اليد العاملة كما قال كعب بن زهير بن أبي سلمى رضي الله عنه:

إن الرسول لنور يستضاء به \*\* وصارم من سيوف الله مسلول

اقتصر مترجمو كعب على ما يفيد أنه أسلم لأن أخاه كتب له: النجاء من أجل أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أهدر دمه مع أنه لا مانع من أن يكون إسلامه لما وقر في نفسه مما عبر عنه في قصيدته الغراء المعروفة بالكعبية. ولعله هو الدافع الأقوى.

أنطق الواقع المحسوس كعباً فوصفه بالصفتين الضروريتين للسائس الموفق في أعماله، وفي قيادته ؛ أسلم كعب بن زهير لا خوفاً من أجل إهدار دمه فقط، وإنما دعاه الواقع إلى أنه رأى في الرسول أنه القائد للأمم كلها لما اتَّصف به من سياسة بارعة، ونظرات ثاقبة واهتمام بالغ في الإشراف.

وإدامة الفكرة ليست مقصورة على التفكير في ملكوت السموات والأرض لأنَّ التفكر في ذلك من أعظم العبادات: إذ يشمل تفكره فيما ينفع الناس ديناً ودنيا، وينقذهم من الضلالة، والجهالة وإدامة الفكرة لتوزُّعه على جوانب مختلفة متعددة متباينة أحياناً، فالإلمام بها، والقيام بما تستوجبه يستدعي أنَّ حركة الفكر لا تقف كالعجلة التي تدير رحی السير المنتظم فإذا وقفت وقف معها السير.

وفقدان الراحة يستدعيه الاشتغال الدؤوب بوظائف عديدة منها ما يرجع للعبادة والقربات.

ومن الوظائف ما يتطلَّبه التدبير لما يصلح الأمَّة، ولتربيتها التربية الناجعة وللجهاد والمواساة وتدبر المهمَّات الدينيَّة والدنيويَّة.

تجلي التربية السياسة في الخلفاء الراشدين:

بدأ الهدى في السياسة الرشيدة في الخلفاء الراشدين فساروا على المنهاج البادي في حياته السياسية، ولذلك لم تختلف على الأمة القيادة الرشيدة ومن أجل الرشد الواضح سمي الخلفاء الأربعة بالخلفاء الراشدين.

ومن آثار التربية النبويَّة فيهم مما تقدم من الصفات أنهم واصلوا الاهتمام البالغ في شؤون المسلمين فلم يفرِّطوا في لحظة من حياتهم لغير صالح فقاموا بأعباء الخلافة مؤدَّاة في كل مقوِّماتها.

فأبو بكر رضي الله عنه لما توفي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اشرأبَّ النفاق وارتدَّت العرب وانحازت، فكان رضي الله عنه كما قالت ابنته عائشة رضي الله عنها: لو نزل بالجبال الراسيات ما نزل بأبي بكر لهاضها، في اختلفوا في نقطة إلّا طار أبو بكر بغنائها وفصلها.

إنَّ مواقف أبي بكر في حروب الردَّة وغيرها دلَّت على أنَّ إيمانه لا يوازنه إيمان في الثبات والقوَّة بعد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

وكذلك عمر انصرف اهتمامه كله لصالح المسلمين، فتفكيره في لحظاته كلها فيما هو بصدده من أموره.

ويصور شدَّة اهتمامه كمواصلة الأحزان من سيد الخليقة ما أخرجه أبو نعيم في الدلائل عن عمرو بن الحارث قال: بينما عمر بن الخطاب على المنبر يخطب يوم الجمعة إذ ترك الخطبة فقال: يا سارية الجبل مرتين أو ثلاثاً. ثم أقبل على خطبته: فقال بعض الحاضرين لقد جُنَّ: إنَّه لمجنون.

فدخل عليه عبد الرحمن بن عوف، وكان يطمئن إليه، فقال: ما ألومهم عليك، إنك لتجعل لهم على نفسك مقالاً، بينما أنت تخطب إذ أنت تصيح يا سارية الجبل، أي شيء هذا؟

قال: إني والله ما ملكت ذلك رأيتهم يقاتلون عند جبل يؤتون من بين أيديهم ومن خلفهم فلم أملك أن قلت: يا سارية الجبل ليلحقوا بالجبل.

لم يخل عمر لحظة من الاهتمام بأخذ أيدي المسلمين فهو في خطبته التي هي بمنزلة ركعتي الظهر يغلب عليه تفكيره في أمر المسلمين فينادي يا سارية الجبل، وسارية هو ابن زنيم الدئلي أمَّره عمر على جيش، وكان من الصحابة لأنهم كانوا لا يؤمِّرون إلا الصحابة، وسيَّره إلى فارس سنة ثلاث وعشرين، فلما نادی عمر بذلك ألقاه الله في سمع سارية فانحاز بالناس إلى الجبل، وبذلك انتصر المسلمون.

وكذلك وقع له في الصلاة فإنه لما أخبر بأنَّ أهل العراق قد حصبوا أميرهم فخرج فصلى غضبان فصلى فسها في صلاته، فلما سلم قال: اللهم إنهم قد لبسوا فألبس عليهم فسلط الله عليهم الحجاج. (أخرجه البيهقي في الدلائل).

التدرُّج في الأمور:

من خصائص التربية النبويَّة أنها تتناول الأشياء تدريجياً بالتعاقب بين ما يبتدأ به، وما ينتهى إليه، فلا تتناول الأمور فجأة وإنما تتناولها بالترتيب والتعقيب وهو ما خصَّه الله تعالى به في تربيته الإنسانيَّة، وأجلى مظاهر ذلك تكوین الهيكل الإسلاميّ من حين أنَّه ابتدأ أمراً خفيَّاً إلى أن أصبح قوة تستوعب العرب ثم إنَّها تستوعب الأمم.

فدعوته الكريمة انقسمت من أجل ذلك إلى ثلاثة أطوار أصلية، كما هو قريب من الأطوار الإنسانيَّة إذ الإنسان يتدرج في ظهوره من كونه جنيناً إلى كونه غلاماً وإلى كونه ناشئاً إلى أن يصبح هَرِماً.

فالطور الأول للدعوة وهو ما كان في ظروف لا تسمح لها أن تنشر إلا في محيط خاص فكان النواة الأولى، والبذرة الصالحة للإسلام ودام طور سرية الدعوة ثلاث سنوات كان فيها الدين يتدرج كما يتدرج الصبي في مشيته.

وأتى بعده طور الجهر بالدعوة، وهو في ذاته ترتيبي إذ ابتدأ الأمر بالجهر بالدعوة بإنذار العشيرة في خصوص الأقربين: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ٢١٤ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ٢١٥ فَإِنۡ عَصَوۡكَ فَقُلۡ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ٢١٦ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ٢١٧﴾[الشعراء:214-217]

فالجهر بالدعوة تركز أولاً على إنذار عشيرته الأقربين لأمرين:

أولها: التدرُّج في الدعوة لتستوعب من تحلُّ قلبَه الهدايةُ من أقاربه ليمتاز المتفهِّمون من ذويه صلى الله عليه وآله وسلم لدين الله المبعوث به خاتم الأنبياء من غيرهم حتى يكون جوه العائلي قد نقده الظرف الذي ابتدأت فيه الدعوة تظهر في ثوب آخر، وهو الجهر بها.

وثانيها: أنَّ التبليغ إذا كان في الأقارب يوقع في الأذهان أنَّ دعوة الإسلام من أعزِّ ما تنطوي عليه الجوانح إيماناً لأنها إذا انتشرت في الاقارب الأدنين كان ذلك دليلاً على صدق مُبلِّغها لأنه لو كان فيه مَغْمز لعلمه أقاربه.

فإقبالهم على الدعوة عنوان على صفائها، وتبرئتها من الشوائب فالترتيب في خطوات الدعوة سر، وإظهار للدعوة في ظروف مهيئة لها الانتشار الواسع، وإعداد القلوب لقبولها.

وما جاءت المقاومة حين اتسعت خطى الدعوة حتى نبتت الجذور، وأصبح الاقتلاع ليس بالأمر السهل.

فكانت كل المحاولات لإحباط انتشار الإسلام محاولات فاشلة باءت بالخيبة والخسران فلم تؤثر في الوقوف في وجهه.

ثم جاء انتقال الإسلام من مكة إلى المدينة لأنَّ أرضها خصبة للدخول في الإسلام، فكانت الهجرة فُرقاناً بين الحقِّ والباطل وخطا الإسلام خطواته في الهجرة على تدرُّج يناسب الهجرة إلى أن جاء نصر الله ودخل الناس في دين الله أفواجاً وأصبح الإسلام مزدهراً.

كانت أطوار الدعوة تربية للمجتمع الإسلاميّ في كونه يأخذ بالتدرج في إقامة أموره، وبذلك يبني الصروح العالية، ولهذا لم يأذن عمر في التوغل في أفريقية لعمرو بن العاص وما ذكره صاحب معجم البلدان من أن عمر بن الخطاب كتب إلى عمرو بن العاص: «لا تدخل أفريقية فإنها مفرقة كأهلها غير مجتمعة، ماؤها قاس ما شربه أحد من العالمين إلا قست قلوبهم»، لم يبعثه على ذلك التطير باسمها، وإنما أراد أن يحافظ على جيوش المسلمين، خوفا من التطويح بهم دون أن يحتاط في الأمر.

انتهاج منهج التدرج:

ما انفكَّ قادة المسلمين عن دخول عظائم الأمور إلا بعد التهيئة، والاستعداد التام، وكان ذلك في عصور متعددة. ومما يذكر من الأخذ بالتربية النبويَّة الداعية إلى أن الإقدام على الشيء إنما يكون بالتدرج للوصول إلى الأهداف، وبلوغها على وجهها الصحيح ما أثبته المؤرخون من حياة عبد المؤمن بن علي فإنه خاض معركة من أكبر المعارك في اطراد الرومان(\*) من بلاد المغرب عندما تمركزوا في شطوط أفريقية وتملكوا أكثرها، وكاد استيلاؤهم يأتي على أفريقية حين استعد الاستعداد التام فكانت جيوشه العظيمة تقطع المسافات البعيدة. وقد مهدت لها الوسائل الكافية لبلوغ الغايات. [ (\*) وهم السكندينافيون الغزاة البحريون، ومنهم روجر الغول الذي فتح صقلية وأقام مملكة صقلية. ومنها استحوذ الورمان على سواحل افريقية أنظر فيما يتعلق بالنورمان الموسوعة العربية الميسرة]

وبذلك أنقذ المهدية، وحاصرها برا وبحرا باسطول عظيم أعدَّه لغرض إنقاذها، فتمَّ له ذلك رغم حصانتها وقوة أسوارها مما جعلها أعز من بيض الأنوق ومع ذلك أنقذها من مخالب أولئك المتسلطين.

كان فتح المهدية في سنة (555) وقد ذكر النحاني في رحلة الجيش العظيم المنظم الذي سار به عبد المؤمن بن علي لفتح المهدية وما ذكره أن الجيش في سيره كان أميالاً لطوله. وكان هذا الجيش بتكبيرة إمام واحد، ولا يتخلف منه أحد. [انظر ص /346].

وتم له مراده، وأنقذت أفريقية من الكفر، فلم تلحق بصقلية التي ضاعت على المسلمين في عصور القهقرى.

ولما تأخر العالم الإسلاميُّ وغطَّ في نومة الجهل والتأخُّر، والبعد عن فهم مبادىء الإسلام في تنشئته الشعوب باغتته المدنيَّة الغربية فانبهر لها وأراد اللحاق بها، غير أنه أراد الوصول إليها فجأة دون قطع المراحل اللازمة، ظاناً أنَّ اللحاق بالمدنية الغربية إنما يكون باشتراء ما تخرجه مصانعها فأقبل عليها بنهم. فلم يستفد منها وتلاشت بين يديه، وضاعت في ذلك أموال طائلة.

وقد تنبَّه لعدم فائدة الارتماء في الأخذ بأسباب المدنيَّة الحديثة دون أن يكون هناك إطار صالح للأخذ بها الشيخ الوزير أحمد بن أبي الضياف (1291) الجدير بأن يلقب بابن خلدون الثاني في كتابه: (إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان).

فكتب فصولاً تعمَّق فيها غاية التعمق بيَّن فيها كيف وصل الإفرنج إلى مدينتهم الباهرة وهو: (تدرج عقلاء الإفرنج في أسباب العمران سبب النجاح فيما وصلوا إليه).

وانظر حال الإفرنج الذين بلغ العمران في بلدانهم غاية يكاد السامع أن لا يصدق بها إلا بعد المشاهدة كيف تدرجوا في أسبابه تدرجاً معقولاً، فإنهم أسسوا قوانین عدل، حتى استقرَّ الأمن وذاقوا لذاته، وتفيئوا ظلاله، فأقبلوا على شؤونهم واشتغلوا بما يوسع دائرة عيشهم وثروتهم، فقوي الأمل واستقام العمل فدعتهم الحاجة إلى كثرته فجعلوا المعامل لالآت الغزل والنسيج وتليين الحديد، حتى إنهم تصرفوا فيه تصرف النجار في لين أخشابه، وغير ذلك مما توفر الدواعي على الاحتياج إليه، فكثر المصنوع فاحتاجوا إلى إنفاقه بالبيع والشراء خارج بلدانهم وأعوز شيء على ذلك الخلطة فسهلوا طرقها في البحر بالسفن الجارية وفي البر بأمن السبل وتمهيد الطرقات، حتى صارت العجلات تصل إلى كل موضوع وتسير في قنن الجبال سيرها في البسائط ثم جعلوا أماكن لتبديل ما يجرها من الحيوانات طلباً للسرعة فطوت كثير المراحل في قليل الزمن.

وجعلوا البريد يحمل مكاتیب الخلطاء تسهيلاً لأسباب الخلطة، ولما أفعمت عندهم سيول العمران والحضارة جعلوا طريق الجديد، تطير به العجلات، بالبخار، حتى كادت أن تصير بلدانهم داراً واحدة.

واقتضت نهاية الحضارة ونقل الأخبار بجذب المغناطيس المسمى بالتلغراف [كان اختراع التلغراف (البرق) سنة 1256]، وهو من أعاجيب الدنيا، ومظهر من آثار العقول الصافية، الناشئة في مهد الأمن، المغذية بلبان الحرية، حتى إن الإنكليز جعلوه في البحر الكبير، فانقطع فأعادوه ثم انقطع فاعادوه، وذلك من مال أغنيائهم لا من مال دولتهم، وكان فعلهم ابتغاء للربح من الأجر على نقل الخبر وهم يربحون منه الآن الربح الذريع، والله أعلم ما وراء ذلك مما أهَّلَ الله له النوع الإنسانيَّ.

وهذا التدرج هو الذي أعانهم على ما يطلبونه من العمران وسهَّل عليهم أسباب الحضارة من غير تكلف، وذلك أنَّ الأمر الضروري - إذا تمَّ على أحسن حال، طلب بطبيعة الأمر الحاجي: لما في الطباع من طلب التزيد، فإذا تم طلب بطبعه أول درجات التحسين، ولم يزل يتدرج فيه بحسب قبوله واستعداده ولو طمحت أنظارهم إلى التحسين من أول الأمر ما حصلوا هذه الدرجة، وهذا معلوم بالمشاهدة، فانظر إلى التلغراف بهذه الحاضرة التونسية فإنَّ دخله ربما لا يفي بأجر من فيه من العملة وانظر إلى مثله في بلدان أوروبا.

ومن استعجل الشيء قبل إبانه، عوقب بحرمانه - سنة الله في عباده وبلاده. [الاتحاف ج1 ص/72 ط2].

يری ابن أبي الضياف أن الحضارة لا تَينع، ولا تؤتي أكلها إلا إذا كانت هناك حرية تنطلق فيها الأفكار إبداعاً واختراعاً.

وبنى نظريته المتقدمة على الحياة الأوروبية التي ما عرفت تقدم الحضارة إلا بعد ما حصلت على الحرية في شعوبها، وركز على إنكلترا التي نمت فيها الحضارة واتسع مداها أكثر من غيرها.

ولعله إنما ركَّز عليها لأن حريتها حصلت تدريجية، ولم يجرِ في أرضها من الدماء ما جرى في أرض فرنسا.

وليس الأمر مقصوراً على أوروبا في الحرية فإنَّ المسلمين في عصورهم الذهبية تمتعوا بحرية في ظلِّ الإسلام لم يتمتع بها جيل مثلهم، ولذلك استطاعوا أن يرتفعوا بالمدنيَّة الإسلاميَّة إلى القمة وأن يكونوا قادة الدنيا.

اغتنام الفرص الحياتيَّة للتربية:

وتختص التربية النبويَّة بأنها تغتنم بعض الفرص لإبداء تربية خاصة مثل اغتنام فرص تأبير النخل التي رمت إلى غاية بعيدة تظهر من التمعُّن فيما رواه لنا الحديث النبويُّ، وهو عن عائشة رضي الله عنها: أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم سمع أصواتاً فقال: ما هذا الصوت؟ قالوا: النخل يؤبرونها. فقال: لو لم يفعلوا يصلح. فلم يؤبروا عامئذ: فصار شيصا [الشيص التمر لا يشتد نواه]، فذكروا للنبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: (إن كان شيئا من أمر دنیاكم فشأنكم به، وإن كان من أمور دينكم فإليَّ) ابن ماجه ج 2 ص /852.

وأوضح من هذا الحديث ما رواه سمَّاك من أنه سمع موسى بن طلحة بن عبيد الله يحدث عن أبيه قال: مررت مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: فرأى قوماً يلقِّحون النخل فقال: ما يصنع هؤلاء؟

قالوا: يأخذون من الذكر فيجعلونه في الأنثى، قال: ما أظن ذلك يغني شيئاً، فبلغهم فتركوه فنزلوا عنها.

فبلغ النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: إنما هو الظن إن كان يغني شيئاً فاصنعوه فإنما أنا بشر مثلكم، وإن الظن يخطىء ويصيب، ولكن ما قلت لكم قال الله فلن أكذب على الله. رواه ابن ماجه ج 2 ص / 825.

حرَّض هذان الحديثان على تربية حيويَّة لا معدل عنها في حياة الإنسان وهي إجراء التجارب فيما يعرض من الأمور استجلاء للحقيقة، واستطلاعاً على باطن الأمور، والتجربة اختبار الأشياء والغوص فيها حتى يتبين ما كان خافياً عن الأنظار ويتضح اتضاح النهار.

وهي أصل في الحياة كلها فإذا ما خلت عن التجربة كانت الحقائق منقلبة، والمعرفة مفقودة إذ كيف يتجلى باطن الشيء دون إجراء التجربة عليه.

فهذان الحديثان أوضحا للصحابة رضوان الله عليهم أن الأشياء قبل إجراء التجربة عليها من قبيل الظنون وهو شأن البشر فإنهم أمام ظنون لا تتميز صحتها من سقيمها، ولا تتجلى خفياتها إلا بعد التجربة.

فالتأبير للمزروعات الذي هو من صنع الإنسان أراد النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يوضح للصحابة أنَّه قبل التجربة من قبيل الظنون كما جاء في إحدى روايات الحديث: (ما أظن ذلك يغني شيئاً).

والظنون الترددات الراجحة بين طرفي الاعتقاد غير الجازم، منها ما هو يثبته الواقع ومنها ما يزيفه الاختبار: فالتظني في مقام التردد لا يجدي نفعاً، فلا بد من اجتلاء الحقيقة الناصعة تمييزاً بين الصحيح والسقيم.

ولإبعادهم عن التظني أخذ النبي صلى الله عليه وآله وسلم أمراً حيوياً تتوقف عليه المعيشة وهو استصلاح النخل بالتأبير فذكر أن التأبير يظن أنه لا يعني شيئاً.

وبمقولته هذه عرض عليهم الظن في موقف من أدق المواقف لكي يقفوا على الاختبار، فحين اختبروا ذلك اتضح لهم أن الظن لا يغني شيئاً إلا بعد الاختبار.

وبعد تجربتهم أجلى لهم فائدة استجلاء الأمور مما يؤدي إلى اتضاح ما كان محل تردد أو توقف فقال: «إنما هو الظن، إن كان يغني شيئا فاصنعوه»، أي: اختبروا أموركم كلها عند التردد والموقف غير القار، فما أجلاه الاختبار وأبان صحته فخذوه وما كان غير ذلك فدعوه.

دعاهم إلى أنَّ الأخذ بالشيء أو تركه موقَّف على ما يتجلى من صحة وغيرها فما بانت فخذوا به، وما لم تتضح صِحَّتُه فدعوه.

والآخذون بهذا القانون الإنسانيِّ هم أقوم البشر على الطريقة لأنَّ مواقفهم مُتضحة جليَّة لا لبس فيها ولا التواء.

فالساسة الذين غاصُوا على الحقائق واتبعوها وساروا على منهاجها الواضح لا تلتوي عليهم الوقائع وبذلك يسلمون من الخطأ فترتاح لهم النفوس وتجري أحكامهم على ما يرضي.

والممتاز من الرجال هو العارف المجرِّب للناس فلا يغتر بالظواهر لعرفانه بالدخائل، فلا يطمع في غفلاته، ولا يخاتل.

ولم تهمل اللغة الاعتناء بالمجرَّب فأطلقت عليه المحنَّك وهو الذي أحكمته التجارب، والأمور ومثل المحنك الحينك.

وإنما دفع الحديث المتقدم إلى التجربة لأنها من أهم أسباب التفهم للروح الحقيقية للبحث العلمي فأمر الطبيعة إذا كان مبنيَّة على النظريات - وهي ظنون في ظنون لم تَسْبِرْها التجربة ولا البحث الكاشف - مآله إلى الركود الفكري فيجمد العقل فلا يخطو أية خطوة لاستنباط القوانين الصحيحة في أي فنٍّ وعلم.

ومن البلية أننا في عصور التدني التي مرَّت بالعالم الإسلامي أغفلت الحنكة وتلقاها من انعكاسات النور الإسلامي غيرنا فاستفادوا منها أيما استفادة، فهذا (غاليليو) بتجربته من البرج المائل في (بيزا) حين أرسل جسمين أحدها يزن مائة رطل والآخر يزن رطلاً واحداً يسقطان بسرعة واحدة خلافا لتعاليم (أرسطو).

وحطَّم هذا المحنَّك تعليماً عشَّش في الأذهان قروناً وهو باطل ولو أراد أحدٌ اختباره لاتَّضح له سقمه لكنَّ الغفلة عن التجربة أدَّت إلى أنَّ الرأي السقيم الصادر عن (أرسطو) عمَّر قروناً مُتطاولة إلى أنَّ جاء هذا النابغة فأبدى أنه لا يتصل بالواقع بأدنی سبب، وبذلك انساق العلماء بعده إلى ضرورية التجربة في الأشياء حتى يقرها الاختبار العميق، ويبرزها مجلاة في ثوب الحقيقة.

فما دعا إليه العالم الإيطالي (غاليلو) أرشدنا إليه ديننا الحنيف ونبَّهنا إليه تنبيهاً يوقظ العقل ويدعو إلى الغوص إلى الأعماق منذ قرون سابقة، وإنما غفلة المسلمين في قرون سير القهقرى هي التي وقفت بالعقول وحالت دونها فلم تستفدْ من التربية النبويَّة الاستفادة الحقَّة.

يحتار العقل حين يرى ترك الاختبار مع أن القرآن يرى في الوقائع ما هو اختبار كما جاء في غزوة أحد.

﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: 179] فالله سبحانه وتعالى أرى المسلمين بهذا الاختبار ما تظهر به المنطويات في النفوس من الإيمان أو النفاق وبذلك يتميَّز الخبيث من الطيب.

فهو تعريف وإرشاد إلى الاختبار بالتجربة فما كان مُجدياً في التفرقة بين الرجال لمعرفة الخبيث من الطيب منهم هو مُجْدٍ في كل شيء حتى لا تتعمَّر العقول بالخرافات وهو ما طبَّقه ابن خلدون في علم التاريخ في تاريخه بعرض الحقائق التاريخيَّة على الاختبار العقلي.

اختبار الضمائر:

يأتي في المرتبة العليا من امتيازات التربية النبويَّة:

نقد الرجال في مواقف صارمة وحازمة ليكونوا عدة للأحداث فالمسلمون منذ عهد الصحابة مع التسلسل في العصور الذهبية أدَّوا وحقَّقوا ما تطلبه الإنسانيَّة من إصلاح فلم تَخِرْ لهم عزيمة، ولم تقفْ في وجههم عقبات، فتكوَّنت أمَّة إسلاميَّة صامدة إلى اليوم في وجه كل ما يعترضها، فرغم ما أصاب المسلمين لا زالت فيهم قوة عزيمة ستصل في أمد بعيد إن شاء الله تعالى إلى افتكاك حقِّها المغتصب في بیت المقدس.

نقد الإسلام الرجال باختبار الضمائر والعزائم فمن اختباره للضمائر مما يعد نموذجاً من أهم ما تتركَّز عليه قوانين المجتمع.

إنَّ الناس في حال الرخاء سواسية لا يظهر خالصهم من زيفهم فإذا ما جاءت الأزمات ظهرت الضمائر المخلصة من الضمائر المريضة.

وقد أخبرنا القرآن بأنَّ في الإسلام النقد الدقيق ليظهر الصدق من الكذب: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ٣﴾[العنكبوت:1-3].

الفتنة الاختبار:

ومنه قوله تعالى: ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗاۚ﴾[طه:40]، فالآيات الكريمات تعريف للناس بأنَّهم لا يتركون على حال واحدة: وهي الرخاء، بل تمازجها حال الشدة من أجل الاختبار.

الاختبار في غزوة بدر:

ومن التربية الفعليَّة مما هو من التربية الخاصَّة لسبر الضمائر قبل الإقدام على عظائم الأمور ما جاء في غزوة بدر الكبرى فإنَّ النبي صلى الله وآله وسلم استشار الناس حين خروج قريش نفيراً لإنقاذ العير التي عليها أبو سفيان والتي أقبلت من الشام في لقاء العير: أو لقاء النفير.

ولما جاء موطن الإختبار كان الصحابة عند حسن الظن بهم، فانبروا لإظهار ما تكنه صدورهم وما تنطوي عليه نفوسهم.

وتقدم أول الناس أبو بكر الصديق السابق لمرضاة الله جل وعلا ومرضاة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم فأعرب عما كان مفتاحاً لإخراج ما في الضمائر وما تكنه النفوس.

وتلاه عمر بن الخطاب رضي الله عنه بما يشجع النفوس، ويقوي العزائم ويدعو إلى الاعتماد على أهل بدر ويصدع بالثبات والصبر.

وقام بعدها المقداد بن عمرو فقال: ما هو شفاء للنفوس

یا رسول الله امض لما أراك الله فنحن معك ولا نقول لك، كما قالت بنو اسرائیل: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: 24] ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا أنا معكما مقاتلون؛ فوالذي بعثك بالحق لوسرت بنا إلى برك الغِماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه. [سيرة ابن هشام ج2 ص/266].

[برك الغِماد بكسر الغين المعجمة وهو موقع وراء مكة خمس ليال. أو هو بلد باليمن وهو أقصى حجر باليمن: والأقرب أنه المراد هنا].

كان هؤلاء الثلاثة السابقون للإعراب عن الضمائر من المهاجرين ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعلم ضمائرهم لهجرتهم معه، فإنهم ما هاجروا وفارقوا الوطن وتركوا الأموال وسلموا في الأقارب إلا وضمائرهم تنطق بأنهم لا تضعف نفوسهم ولا يخافون ولا يَهابون الشدائد فلا يحيدون قيد أنملة عما ندبهم إليه، ولكنه مع ذلك طلب وأعاد الاستشارة، فقال: أشيروا عليَّ أيها الناس وإنما يريد الأنصار.

وإنما أراد هم علاوة عن كونهم أنصاراً لقصد اختبارهم في الموطن الحرج الذي وقفه الإسلام في وجه الشرك وقفة جماعية.

فلابدَّ في هذا الموطن من الاستكشاف حتى تكون هذه الموقعة - موقعة بدر الكبرى فرقاناً بين الحق والباطل وتبيانا للعزائم، خصوصاً أنهم حين بايعوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم قالوا له:

إننا براء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمتنا نمنعك كما يمنع أبناءنا ونساءنا.

فالبيعة كأنها مقصورة على الدفاع دون الهجوم فالموطن يتطلب شرح ما عندهم لأنهم ربما يرون أن النصرة لا تكون واجبة عليهم إلا على عدوه إذا دهم المدينة.

وقد أدرك ما يطلبه من الكشف عن ضمائر الأنصار سعد بن معاذ رضي الله عنه فقال: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: أجل.

قال: قد آمنا بك، وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة فامض يا رسول الله لما أردت.. فنحن معك فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلَّف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً إنا لصُبر في الحرب صدق في اللقاء لعل الله يريك منا ما تَقَرَّ به عينك. فسر بنا على بركة الله. وقال سعد بن عبادة مثل ذلك: امضِ لما شئتَ فنحن متبعوك. [سيرة ابن هشام والتسهيل لابن جزي ج2 ص61].

وقد أنتج اختبار الضمائر هذا ما هو متوقع من الصحابة رضوان الله عليهم، مع أنه قد كان فريق من المؤمنين كارهين قتال العدو، وإنما كانوا راغبين في عير قريش المقبلة من الشام لأنَّ فيها الأموال العظيمة مع قلة من معها فهي لقمة سائغة.

دار الأمر بين إحقاق الحق وإبطال الباطل بإرغام الشرك ونصرة المسلمين مع قلة عددهم وعدتهم إذ كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر، ووفرة المشركين إذ كانوا ألفاً.

وبين الاستحواذ على العير بدون كبير عناء، وكثرة قتال، والنفس بالطبع ميالة مع إصابة المال بدون لقاء مكروه، والله يريد إعلاء الدين، واستئصال الكفر فشتان بين الموقفين فكان ما استخرجته المشورة انصياع ضمائر المسلمين إلى ما أراده الله تعالى فغلبوا نفوسهم ونسوا إرادتهم الأولى، فصدقوا القتال فكان ما وعدهم الله من إحدى الطائفتين حين أبْلَوا البلاء الحسن.

لهذا سبقت فتية من الأنصار إلى المبارزة لما دعا إليها عتبة بن ربيعة، وأخوه شيبة بن ربيعة وابن عتبة الوليد.

وهؤلاء الفتية من الأنصار هم:

عوف بن الحارث

وأخوه معوذ وأمهما عفراء

وعبد الله بن رواحة.

ولكن مبارزوهم من قريش أبوا مبارزتهم، وطلبوا الأكفاء من قومهم فكانت الدائرة على هؤلاء المتباهين الشامخين بأنوفهم.

ما أنتجه الإختبار:

بعد هذا الاختبار دعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى قتال الأعداء المشركين وحرَّض على الجهاد بقوله:

«قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض» فلم يحجم الناس وأقبلوا على الجهاد صابرین محتسبين، مقبلين غير مدبرین.

ومنهم عمير بن الحمام رضي الله عنه [هو من الخزرج من بني سادة وهو أول من قتل من الأنصار في الإسلام]، فإنه حين أراد الإقبال على الجهاد وكان في يده تمرات يأكلهن فقال: بخ بخ فما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء ثم قذف التمرات من يده وأخذ سيفه فقاتل حتى قتل: وهو يقول:

ركضا إلى الله بغير زاد = إلا التقى وعمل المعاد

والصبر في الله على الجهاد

إنه استطال الحياة، حياة أكل التمرات فلذلك ألقى بها كما جاء في صحيح مسلم، جاء فيه من حديث طويل.

فدنا المشركون، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض». قال - ابن انس رضي الله عنه يقول عمير بن الحمام الأنصاري: «جنة عرضها.. السموات والأرض - أي للنبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: نعم.. قال: بخ بخ. فقال رسول الله: «وما يحملك على قول بخ بخ». قال: لا يا رسول الله - إلاَّ رجاء أن أكون من أهلها قال: فإنك من أهلها. قال: فأخرج تمرات من قرنه - بفتح القاف والراء: أي جعبة نشابه فجعل يأكل منهن ثم قال: لئن حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة. قال: فرمی بما معه من التمر ثم قاتل حتى قتل. [صحيح مسلم ج 3 ص /1510].

وصنع قريباً منه عمرو بن الحارث: وهو ابن عفراء قال: يا رسول الله ما يضحك الرب؟ - أي يرضيه - من عبده. قال: غمسه يده في العدو حاسراً، فنزع درعاً كانت عليه فقذفها ثم أخذ سيفه: فقاتل حتى قتل.

هذه النفوس المختبرة التي اختبرها الإسلام في هذا اللقاء التاريخي حققت الشيء الكثير للإسلام إذ قضت على رؤوس الكفر، صناديد قريش.

وقد أشار إلى بعضهم حسان بن ثابت رضي الله عنه في قوله من قصيدة (الوافر)

فَغادَرنا أَبا جَهلٍ صَريعاً \*\* وَعُتبَةَ قَد تَرَكنا بِالجَبوبِ

وَشَيبَةَ قَد تَرَكنا في رِجالٍ \*\* ذَوي حَسَبٍ إِذا اِنتَسَبوا حَسيبِ

يُناديهِم رَسولُ اللَهِ لَمّا \*\* قَذَفناهُم كَباكِبَ في القَليبِ

أَلَم تَجِدوا حَديثِ كانَ حَقّاً \*\* وَأَمرُ اللَهِ يَأخُذُ بِالقُلوبِ

فَما نَطَقوا وَلَو نَطَقوا لَقالوا \*\* صَدَقتَ وَكُنتَ ذا رَأيٍ مُصيبِ

وجعلت رجالات قريش بعد تلك الهزيمة الشديدة تلقي بأيديها للأسر، فكانت بعد ذلك تلك الأنفة واقعة في الأسر إذ أسر منهم سبعون عدد قتلاهم إذ بلغ المقتولون سبعين ولاذ الكثير منهم بالفرار، أما المسلمون فقد استشهد منهم أربعة عشر رجلا من المهاجرين وثمانية من الأنصار.

قالت سودة بنت زمعة أم المؤمنين رضي الله عنها: والله إني لعندهم إذ أتينا فقيل هؤلاء الأسارى قد أتي بهم فرجعت إلى بيتي: ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم به: وإذا أبو يزيد سهيل بن عمرو في ناحية الحجرة مجموعة يداه إلى عنقه بجبل؟

قالت: فلا والله ما ملكت نفسي حين رأيت أبا يزيد كذلك أن قلت:

أبا يزيد، أُعطيتم ما بأيديكم! ألا مُتُّمْ كِرامًا! قالت: فوالله ما نبَّهني إلَّا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم من داخل البيت: "أَيْ سَوْدَةُ، أَعَلَى اللَّهِ وَعَلَى رَسُولِهِ تحرِّضين؟" قلت: يا رسول الله، والله ما ملكت نفسي حين رأيت أبا يزيد مجموعة يداه إلى عنقه أنْ قلتُ ما قلتُ. [سيرة ابن هشام ج 2 /299].

قالت ما قالت رضي الله عنها لأنها رأت من الأساری طواعية تدعو إلى التعجب حيث ألقوا بأيديهم إلى الأسر وما ذاك إلا لما لقوه.

فهي رضي الله عنها وأرضاها في نقطة استغراب تدعو إلى القول بمثل ذلك فالتعجب أنطقها.

وهؤلاء الأسرى معذورون لأنهم رأوا شدة مِراس من المسلمين جعلتهم بين أمرين إما الأسر، واما القتل الذريع حين رأوا صناديدهم قد أفنتهم الحرب فلذا انصاعوا إلى الأسر لما لم تهن عليهم نفوسهم.

الاختبار والرحمة:

ثم إنَّ الاسرى أوصى بهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم خيراً فقال: استوصوا بالأساری خيراً.

قَالَ أَبُو عَزِيزٍ فَكُنْتُ فِي رَهْطٍ مِنَ الْأَنْصَارِ حِينَ أَقْبَلُوا بِي مِنْ بَدْرٍ فَكَانُوا إِذَا قَدَّمُوا غَدَاءَهُمْ وَعَشَاءَهُمْ خَصُّونِي بِالْخُبْزِ وَأَكَلُوا التَّمْرَ لِوَصِيَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِيَّاهُمْ بِنَا، مَا تَقَعُ فِي يَدِ رَجُلٍ مِنْهُمْ كِسْرَةُ خُبْزٍ إِلَّا نَفَحَنِي بِهَا فَأَسْتَحِي فَأَرُدُّهَا فَيَرُدُّهَا عَلَيَّ مَا يَمَسُّهَا. [سيرة بن هشام ج 2 ص 299].

لقد مثلت غزوة بدر في أربابها المثل الممتاز من القيم التي أظهرها الاختبار أولاً، وحققها الواقع ثانيا.

اختبارٌ ثانٍ:

وكما اختبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم ضمائر المسلمين في الصمود والصبر.. والجود بالنفس اختبرها في الجود بالمال وذلك في قسمة الأنفال.

فإنَّ المسلمين بعد أن جمعوا الأنفال في بدر - أي غنائم بدر - اختلفوا في قسمتها لأنه لما تسارع الشباب بقیت الشيوخ تحت الرايات فلما فتح الله عليهم جاءوا يطلبون ما جعل لهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال لهم الأشياخ: لا تذهبوا به دوننا، ولا تستأثروا به علينا، فإننا كنا رِدْءاً لكم، لو انكشفتم إلينا فتنازعوا فأنزل الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: 1]

هذه حال اختبار ثانية في خصوص الأموال فإنَّ هذه الأموال كادت تؤدي إلى قطيعة بين الشيوخ والشباب بسبب المنازعة ولكنها التربية الإسلاميَّة الاختبارية العالية استخرجت ما في الضمائر وعلمتهم إیثار المصلحة العليا على حب المال الذي هو قطعة من الكبد.

وقد أظهر الاختبار أنَّ المسلمين البدريين المتنازعين لم تطغَ عليهم المادة فنسوها حين أنزل الله أنَّ الأنفال لله وللرسول يضعها حيث أمره الله تعالى وقد بيَّن جلَّ وعلا مصارفها في قوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ... ﴾ [الأنفال: 41] الآية.

ويصوِّر لنا ما عليه المنتزع منهم الغنائم من نفسية منطاعة أنهم جادوا بها ونفوسهم راضية.

عن سعد بن أبي وقاص، قال: لما كان يوم بدر قُتِلَ أخي عُمَير، فقَتَلْتُ به سعيد بن العاص، وأخذتُ سيفه - وكان يسمى ذا الكيفة - فأتيت به النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: (اذهَبْ فاطرَحْه في القَبَض)، فرجعت وبي ما لا يعلمه إلا الله مِنْ قَتْل أخي، وأخْذِ سَلَبِي، فما جاوزتُ إلا يسيرًا حتى نزلت سورة الأنفال، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (اذهب فخُذْ سيفك). [أسباب النزول للواحدي ص227].

اختبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم سعدا بالجود بالمال، فطاع رضي الله عنه بسيفه الذي غَنِمَه فظهر بذلك أنَّ هذا الضمير النقي لا يؤثِّر على طاعة الله ورسوله شيئا وإن عز عليه.

اختبار ثالث للعقول:

جمعت غزوة بدر اختبارات مُتعددة منها ما تقدم من اختبار الضمائر في الجود بالنفس والجود بالمال.

ومنها اختبار العقول وذلك أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم نزل أدنى ماء من بدر فقال الحباب بن المنذر: وكان يقال له: ذو الرأي:

یارسول الله أرأيت هذا المنزل منزلاً أنزلَكَهُ الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة!؟ فقال: بل هو الرأي والحرب والمكيدة.

فقال: يا رسول الله فإنَّ هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم ننزله ثم نغور ما وراءه من القلب ثم نبني عليه حوضاً فنملأه ماء ثم نقاتل القوم: فنشرب ولا يشربون.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أشرت بالرأي.

فنهض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومن معه من الناس فسار حتى إذا أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه ثم أمر بالقلب فغورت وبنى حوضاً على القلب الذي نزل عليه فملئ ماء، ثم قذفوا فيه الآنية.

إن في نزول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم استفادة أمرين: الأول هو اختبارهم هل ينتبهون إلى موقعهم الحربي وصلاحيته وما يتطلبه من الحذر والأخذ بالحيطة فكان هذا الاختبار مجدياً حيث عرف أنهم متنبهون حريصون على الحيطة وحذرون.

والثاني تعويد لهم على الشورى واختبار لعقولهم وإنما كان هذا تعويداً لهم لأنه إذا أخذ بها من يتلقى الوحي من لدن حكيم عليم، فكيف بغيره فهم ملزمون بالأخذ بها، حتى يختمر الرأي وتجلَّى الحقيقة الناصعة.

اختبار العزائم في غزوة أحد:

بجانب غزوة بدر غزوة أخرى هي مثيلتها في الاختبار وهي غزوة أحد ولكنه اختبار من نوع آخر أشدُّ وأقوى، وهو اختبار العزائم الصادقة من العزائم الخوَّارة فإنَّ حال السعة تستوي فيه العزائم ولا يفوق بعضها بعضاً، وإنما تظهر القيمُ وتختلف الرجال حين يحزب الأمر وتستحكم الشدة.

إنَّ هذه الغزوة أظهرت الثابتين من غيرهم، فإنها جاءت بعد تمنٍّ من بعض المسلمين لقاء العدو، فإنَّه لما علم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بخبر مسير قريش إلى المدينة في ثلاثة آلاف رجل فيهم سبعمائة دارع وثلاثة آلاف بعير ومائتا فرس أحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المكث في المدينة وقال لأصحابه: امكثوا فإن دخلَ القومُ الأزقَّة قاتلناهم، ورموا من فوق البيوت، وقال الذين تمنَّوا لقاء العدو وأسفوا على ما فاتهم من مشهد بدر: يا رسول الله كنا نتمنى هذا اليوم اخرج بنا إلى أعدائنا لا يرون أنا جبُنَّا عنهم.

فاستجاب لرغبتهم فصلى بالناس الجمعة ثم وعظهم وأمر بالجد والاجتهاد. وأخبرهم أن النصر ما صبروا، وأمرهم بالتهيؤ لعدوهم ففرح الناس بذلك. فلمَّا خرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قالوا: يا رسول الله استكرهناك ولم يكن لنا ذلك، فإنَّ شئت فاقعد صلى الله عليك.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمَتَه أن يضعها حتى يقاتل، وهذا تنبيه منه على عدم انثناء العزيمة؛ لأن عزيمة الأنبياء عزيمة صادقة، فلهذا لم يطاوعهم في البقاء بالمدينة ونَزْعِ لأمَتِه إشعار لهم بأن يكونوا على سيرته فلا يقعدوا عن الجهاد، وأن يواصلوا الذي خرجوا من أجله.

وأظهرت هذا الغزوة في أولى خطواتها الانخزال من الذين في قلوبهم مرض، وهم المنافقون وقد تعلَّل رأسهم بعِلَّة لا تقبل وهي مخالفة رأيه حيث أشار بالبقاء في المدينة فقد انخزل أي انقطع عن جيش المسلمين - عبد الله بن أبي بن سلول بثلث الناس فبقي النبي صلى الله عليه وآله وسلم في سبعمائة إذ كان عددهم ألفا، وقال: أطاعهم وعصاني، ما ندري علام نقتل أنفسنا ها هنا أيها الناس؟

فرجع من اتبعه من قومه للنفاق والريب.

واتبعه عبد الله بن عمرو بن حرام يريد أن يرجعهم إلى الجادة ويذكّرهم بالله حتى لا ينخذل المسلمون قائلا لهم:

أذكركم الله ألا تخذلوا قومكم ونبيكم عندما حضر من عدوهم فقالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون لما أسلمناكم، ولكن لا نرى أنه يكون قتال.

فلما استعصوا عليه وأبَوا إلا الانصراف قال: أبعدكم الله أعداء الله فسيغني الله عنكم نبيَّه. [سيرة ابن هشام ج 3 ص 68].

اتضح في هذا الموقف أن عبد الله بن أُبي بن سلول ممن يخذل الإسلام فلا اعتماد عليه وإن كان رسول الله غضَّ الطرف عنه وعن أمثاله من المنافقين. لئلا يحدث بلبلة في العقول فيدعي المدعون أنَّه يقتل أصحابه لأنَّ الأخبار تنتقل على غير وجهها فيذكرون قتلهم، ويغفلون الأسباب فتبقى مجهولة.

ثم جاء دور اختبار العزائم الاختبار الشديد، حتى ينجلي ما هو الموقف لكل أحد حين يشتد الأمر على المسلمين وتنالهم الهزيمة بعد نصر وقعة بدر، وهم قد تعوَّدوا النصر ولم يتعوَّدوا تلقي الهزيمة فلا بدَّ من اختبار عندها. وغزوة أحد كانت أولاً للمسلمين فإنَّ الله تعالى أنزل نصره عليهم وصدق وعده فحسوهم بالسيوف فكانت هزيمة المشركين لا شك فيها حتى أن نساءهم اللاتي جاءوا بهنَّ تقوية لنفوسهم وَلَّيْنَ هواربَ ما دون أخذهنَّ قليل ولا كثير.

ثم انقلب الأمر وأُتِيَ المسلمون من قبل مخالفة بعض الرماة الذين جعلهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم حماية لظهور المسلمين فإنه لما مالت الرماة إلى المعسكر حين نزلوا من مواقفهم وخالف هؤلاء البعض ما أمرهم رسول الله، ولم يلتفتوا لما قاله لهم أميرهم عبد الله بن جبير: أنسيتم ما قال لكم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ولما نزل هؤلاء ولم يبقَ إلا قلة أتى المسلمون من خلف فقد نظر خالد بن الوليد - وهو آنذاك لم يزل مشركاً-إلى الجبل وقلة أهله فكرَّ بالخيل فتبعه عكرمة بن أبي جهل وقد أسلم عكرمة عام الفتح فحملوا على من بقي من المسلمين فقتلوهم وأميرهم عبد الله بن جبير وقد انكشف المسلمون فأصاب فيهم العدو. قال ابن إسحاق: وكان يوم بلاء وتمحيص أكرم الله فيه من أكرم من المسلمين بالشهادة حتى خلص العدو إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فدث - أي أصيب بالحجارة حتى وقع لشقه فأصيبت رباعيته وشُجَّ في وجهه الشريف، وكُلِمت شفتُه.

وقد بلبل صراخ ابن قميئة الذي قتل مصعب بن عمير وهو يقاتل دون رسول الله صلى الله عله وسلم فظنَّه الرسول فصرخ بأنَّ محمداً قتل فصاح ما ظنه. وقال قائل: أن عباد الله أخراكم - أي احترزوا من جهة أخراكم فزادت البلبلة فعطف المسلمون لقتل بعضهم بعضاً: وهم لا يشعرون وانهزمت طائفة إلى المدينة وتفرق سائرهم ووقع فيهم القتل. [اختصار المواهب للنبهاني ص74].

فهؤلاء هم الذين أظهر الاختبار أن عزائمهم ليست عزائم ثابتة تتمكن من زمام نفسها فتضع حداً للخوف والفرار، وإنما هي نفوس تفرق حين الشدة وتضعف حين لا ترى النصر فهؤلاء لا بدَّ لهم من تربية خاصَّة، وتفريغ إلهي حتى لا يبقوا على ما هم عليه بل لا بدَّ من التغلب على الخوف ولا بدَّ لهم من قوة تدفعهم إلى عدم اللجوء إلى الفرار، ولو بدا لهم الأفق متجها.

ويقابل هؤلاء أهل الثبات وفي طليعتهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم القدوة الحسنة فإنه يشجع حين يجبن الناس، ويقوي العزائم حين تضعف في كل موقف، فإنه ثبت مع ثلة من أصحابه منهم أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعلي ابن أبي طالب رضي الله عنهم.

ومن هؤلاء الثابتين زياد بن السكن ونفر من الأنصار فإنهم حين قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين غشيه القوم: من رجل يشري لنا نفسه؟ فقام زياد بن السكن في نفر خمسة من الأنصار، فقاتلوا دون رسول الله صلى الله عليه وسلم، رجلا ثم رجلا، يقتلون دونه، حتى كان آخرهم زياد أو عمارة، فقاتل حتى أثبتته الجراحة، ثم فاءت فئة من المسلمين فأجهضوهم عنه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أدنوه منى، فأدنوه منه، فوسَّده قدمه، فمات وخدُّه على قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم.

المساهمة النسائية:

وحتى النساء ساهمن في الثبات فهذه أم عمارة نسيبة بنت كعب خرجت تنظر ما يصنع الناس ومعها سقاء فيه ماء فانتهت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والدولة والريح للمسلمين.

فلما انهزم المسلمون انحازت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقامت وباشرت القتال وذبّت عنه بالسيف ورمت عن القوس حتى خلصت إليها الجراح أصابها ابن قميئة فترك بها جرحاً على عاتقها أجوف له غور. [السيرة ج 3 ص 86].

ومن المواقف المشرِّفة التي وقفتها النساء ما جاء في سيرة ابن هشام أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مرَّ بامرأة من بني دينار وقد أصيب زوجها وأبوها وأخوها مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأحد فلما نَعَوا لها قالت: فما فعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قالوا خيراً يا أم فلان هو بحمد الله كما تحبين. قالت أرونيه حتى أنظر إليه. حتى إذا رأته قالت كل مصيبة بعده جَلَل - تريد صغيرة -.

يتجلى من هذا أنَّ الإسلام يزن للمواقف الرجال فلا يقدم على موقف حتى يكون رجاله في قدرة وتفانٍ للقيام بما يضطلعون به علاوة على الاستعداد المادي.

وأعدوا لهم ما استطعت، فهو في سائر خطواته يعتني بالمادة والروح لا يهمل منهما شيئاً، فقد قال صلى الله عليه وآله وسلم لخالد بن الوليد: حاربهم بمثل ما يحاربونك به، ويدخل في هذا كله وسائل الاستعداد.

التربية النبويَّة وعلم النفس:

سبقت التربية النبويَّة ما استجدَّ من علم النفس الذي انبنى عليه علم التربية فهو من التربية بمنزلة الروح من الجسد فإذا ما خلت عنه أصبحت غير ذات جدوى، فالمربي الذي لا معرفة له بنفسية من يتولى تربيتهم يكون معهم في بُعْد شاسع فهم في وادٍ وهو في آخر لا لقاء بينه وبينهم.

ومن أجل عدم العناية بعلم النفس في العصور التي كلكل الجهلُ فيها على العالم الإسلامي انحطَّت التربية، وكان المربون لا يَعتمدون على شيء في تربيتهم غير العقاب فقَصروا عليه همهم فهم بين أمرين إما تنفيذ العقاب وإما التخويف بالعقاب.

فالعقاب هو الوسيلة الوحيدة في المجتمعات القريبة من عصرنا الحاضر فالمربي يرى أن الناشئة بين يديه لا يستقيم أمرها إلا بالعقاب، والذين يتولون تسيير دفة الأمور قَصَروا أمرهم على العقاب فالكل لا يولي معرفة النفسيات اهتماماً، ومن أجل ذلك تقهقر الشرق وتسلط عليه كابوس الخوف الذريع مع أنَّ الإسلام أعطى لكل حال ما يناسبها فإنه لم يهمل علم النفس سواء كان فرديَّاً أو اجتماعيَّاً.

مع أنَّه أعطى النفسيَّات البعيدة عن تفهم المعنى من التعايش الاجتماعي ما يناسبهم من التخويف بالعقاب حتى تقصر أيديهم عن مصرة المجتمع.

فمن جوانب مراعاة علم النفس ما أخبرنا به الحديث النبويُّ المروي في صحيح البخاري تحت عنوان:

باب ما كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يتخوَّلهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا، روى البخاري فيه حديثين: الأول حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يتخولنا بالموعظة كراهة السآمة علينا.

والثاني عن أنس رضي الله عنه أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: (يسِّروا ولا تعسِّروا، وبشِّروا ولا تنفِّروا).

والحديث الأول كما أخرجه البخاري أخرجه مسلم في صحيحه في باب الاقتصاد في الموعظة، فهو حديث اتفق عليه الشيخان.

وأخرجه مسلم بثلاث روايات بتسعة أسانيد، [انظر صحيح مسلم ج4 ص 216-217]، يظهر تعدد أسانيد رواياته عناية العلماء به فهو حديث محلُّ عناية لما أحسوا فيه من تعمقه في تفهم النفسيَّة الإنسانيَّة.

ولهذا كان راويه عن النبي عن عبد الله بن مسعود عاملاً به كما جاء في رواية مسلم وهي: عن شقيق [هو شقيق بن سلمة وهو أعلم من أهل الكوفة حديث عبد الله بن مسعود ويقول فيه ابن معين: ثقة لا يسأل عن مثله مات بعد الجماجم سنة81 كما ذكره خليفة بن خياط التهذيب ج4ص316] قال:

كنا جلوسا عند عبد الله ننتظره: فمرَّ بنا يزيد بن معاوية النخعي فقلنا أعلمه بمكاننا.

فدخل عليه فلم يلبث أن خرج علينا عبد الله فقال: إني أخبر مكانك فما يمنعني أن أخرج إليكم إلا كراهية أن أملكم، إن رسول الله من كان يتخولنا بالموعظة في الأيام مخافة السآمة علينا.

فعبد الله بن مسعود رضي الله عنه كان اتخذ سنة رسول الله عل ديدنا في وعظه للناس مراعيا ما راعاه الواعظ الأول.

ومعنى التخول هو التعهد من قولهم خال على شيء خَوْلاً إذا تعهَّده، ويقال: خال المال إذا ساسه، وأحسن القيام عليه.

ولأبي عمر الشيباني في رواية هذا الحديث أن الصواب فيها يتحولنا بالحاء المهملة، أي: يطلب أحوالهم التي ينشطون فيها للموعظة، ولا يكثر عليهم فيملوا، لكن الصواب في الرواية يتخولنا بالخاء المعجمة.

يعلل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن التخول بالموعظة من النبي صلى الله عليه وآله وسلم إنما ذلك من أجل مخافة السآمة وهو أمر مقصود لا شك فيه فإنَّ الإكثار من الشيء ولو كان نافعاً يعود إلى الضد.

فإرهاق الطفل بالتربية يؤول به إلى النفرة منها، كما هو مشاهد في المدنية الحديثة اليوم فإنَّ النفرة منها نتاج التوغل فيها، فالطفل الذي لا يرى من أبويه ومن مجتمعه إلا التوغل في المدنية يملها فما يراه من التعمق فيها آل به إلى ما نراه في الشباب من نبذ الترفه، والانغماس في الأوساخ بسبب أن النفس إذا أكثرت عليها من الشيء تعافه وتكرهه وتود غيره ولو كان انحطاطا، وقد بلغ الحال ببعضهم إلى الانتحار الجماعي.

ومن هنا جاء التوسط في الإسلام وهو الاقتصاد كما نطق به كتاب الله سبحانه وتعالى في قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ [الإسراء: 29].

إن التوسط في الانفاق من أهم قواعد الاقتصاد إذ يمكن بواسطته اعتدال ميزان الحياة، لأنَّ الإمساك المعبَّر به هنا يجعل اليد مغلولة إلى العنق لا تستقيم معه الحياة، ولا يتمكن صاحبه من العيش؛ لأنه بتقتيره على نفسه تتداعى صحته وكما لا يمكن له في ذاته أن يحيا حياة مستقيمة كذلك لا يمكن له أن ينشئ وسطاً عائلياً لاستلزام العائلة مطالب لا بدَّ من توفيرها فإذا لم تتوفر فإما أن تنقرض العائلة أو يسد باب الوجود العائلي، أو تنشأ العائلة محرومة من كل وسائل التكوين في القوت والتربية واللباس وغير ذلك، فهي إما أن تنهار جسمياً وإما أن تنشأ عائلة فاقدة لكل المقومات الأخلاقية بل بسائط الروابط الإنسانيَّة.

وكذلك الإسراف فمضاره لا تقل عن مضار التقتير، بل هي أشد منها مؤدَّاها الانهيار الجسمي بسبب الإسراف في الشهوات مهما كان نوعها، وأيّاً كانت هذه الشهوات فآثار الإسراف في العائلات والمجتمعات أسوأ آثار وأشدها فساداً.

وناهيك بالأمم المنقرضة فإنَّ سبب دمارها وانهيارها وتلاشيها الترف البالغ المؤدي إلى أردأ الحالات كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: 16].

ومعنى أمرنا مترفيها: كثَّرنا المترفين المنعَّمين، والترف مدعاة للخروج عن أمر الله تعالى والابتعاد عن طاعته جلَّ وعلا.

فالتوسُّط هو الذي يمكن بواسطته مواصلة سير الحياة، أما الطرفان التقتير والإسراف فموقعان في نهاية، وهي إيقاف السير الإنسانيّ.

فالمدنية الحديثة تقاسي اليوم جنوح أفرادها إلى الإغراق في التنعم مما أدَّى بشبابها إلى تلك الحال المشار إليها آنفاً. وهو ما تخوَّفه النبي صلى الله عليه وآله وسلم على العرب.

حدثت أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها أنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم دخل عليها فزعاً يقول: «لا اله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه» وحلق بأصبعيه الإبهام والتي يليها. [هذه رواية للبخاري والذي اتفق عليه الشيخان بأصبعه بالإفراد]

قالت زينب: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا كثر الخبث. [رواه الشيخان في صحيحيهما].

التخول الضروري:

ويحتمل تخوُّله صلى الله عليه وآله وسلم بالموعظة معنى آخر قريباً جداً وهو إنما لم يواصل موعظته وجعلها في أيام دون أخرى، لأن في المواصلة مضرة لأنَّ الدماغ في حاجة إلى الراحة والغذاء لإيقاف الهدم الفكري.

يذكر علماء النفس أن هناك فضلات صغيرة في أوقات الاشتغال بالأعمال الفكرية تتساقط وتجتمع في مادته العصبية وتسمها.

فاذا أطال أمد الاشتغال كثرت هذه الفضلات ووصل السم إلى حال لا يقدر معها المخ على القيام بأعماله فإذا أريد إرجاع قوته إليه، وجب في الحال إيقاف ما يحدث فيه من الهدم، وإزالة ما تجمع فيه من الفضلات السامة وتعويض ما فقده من مادَّته.

أما إيقاف الهدم فإنما يكون بالراحة التامَّة وإضراب عن العمل فترة من الزمن، وأما الأمران الآخران فلا وسيلة لهما إلا الدم الذي يأتي من القلب، وينصب في المخ، فيكتسح جميع ما فيه من الفضلات ويغذيه ما أتى به من المواد الصالحة لتكوين الأنسجة العصبية، ولا يخفى أنه كلما كان الدم نقياً قوياً كان أقدر على القيام بهذا العمل ومن ذلك نرى الإنسان لا يقوى على أعماله الفكرية إلا إذا أخذ حظه من الهواء النقي والطعام الجيد. والراحة الكافية. [علم النفس وآثاره في التربية والتعليم للجارم وأمين ص/31].

فالراحة الفكرية التي وضح علم النفس ضروريتها وتأكدها في استمرار العمل الفكري نبَّهنا صلى الله عليه وآله وسلم عليها وأراها للصحابة عملياً.

ولم يهملها الصحابة فأخذوا بها، ولذلك كان عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه لا يخرج لأصحابه كل مرَّة محافظة على هذه الراحة الفكرية، وقد نظم لهم بوماً خاصاً كما ورد في صحيح البخاري في باب من جعل لأهل العلم أياماً معلومة.

عن أبي وائل شقيق قال: كان عبد الله رضي الله عنه يذكر الناس في كل خميس فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن لوددت أنك ذكرتنا كل يوم. قال: أما إنه يمنعني من ذلك أني أكره أن أملكم وأني أتخولكم بالموعظة كما كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يتخولنا بها مخافة السآمة علينا. [البخاري (ج1 ص /46)].

وانتهج النهج النبوي في تخصيص أيام للدراسة علماء المسلمين ونظفر بهذا في أمالي أبي علي القالي. فإنه حين دخل الأندلس اتَّبع سُنة عبد الله بن مسعود فأخذ يوم الخميس لإملاء كتابه المعروف بالأمالي حسبما جاء في أوله.

فأمليت هذا الكتاب - أي كتاب الأمالي - من حفظي في الأخمسة من قرطبة وفي المسجد الجامع بالزهراء المباركة. [الأمالي ج1 ص /3].

إنَّ ما ذكرنا هنا وإن كان غير ما ذكره ابن مسعود رضي الله عنه كما يبدو إلا أنه لا ينافيه لأنه في الحقيقة تحصيل له علمي مبني على ما ذكر.

التربية القولية المركِّزة على علم النفس:

ولم يكتفِ صلى الله عليه وآله وسلم بالتربية المركّزة على علم النفس التي هي من قبيل التربية الفعليّة حتى أضاف إليها قوله إرشاداً وهداية لكي يحافظ الناس على الفكر منبع استقامة الحياة فجاء عنه كما في الحديث الثاني المورد في باب التخول بالموعظة وهو: «يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا».

فالحديث ينهج منهج التلطف في التربية والتعليم دون القسوة المرتكبة من بعض رجال التربية والتعليم الذين يرون أنها الوسيلة الوحيدة لنفع النشء.

كيف نراها كذلك ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حديثه ينادي بخلاف ذلك فكلما رأى من بعض الصحابة ما ينفر أمرهم بالتيسير وتأكيداً لذلك نهاهم عن التعسير، وأمرهم بالتبشير وهو إدخال السرور على الناس.

وأمر بالتيسير لينشط الفكر ويعمل بدون كلل، وهو ما سلف من أن إراحة الفكر لا معدل عنها وهي الطريق الأقوم لاستقامة الفكر.

التربية النبويَّة من أهم مصادر علم النفس:

تشتمل التربية النبويَّة على الكثير مما هو من أهم مسائل علم النفس، ولو تتبَّع الباحث المتعمق الأحاديث لوجد أن علم النفس في أصوله، منبعه الأحاديث كما وقع توضيح بعضه في هذه الكلمة.

لكن الأغلبية ممن ألَّفوا في علم النفس وخاصة المداخل فيه نراهم يذكرون مثلاً أن أفلاطون يرى عندما تهبط النفس من عالم المثل إلى العالم المادي لتحتل الجسم ينشأ منها ثلاث نفوس النفس العاقلة والغضبيَّة والشهوانيَّة.

وما يقابله من علم النفس الحديث أنَّ النفس العاقلة يقابلها النواحي الإدراكية، والنفس الشهوانية يقابلها النواحي الوجدانية، والنفس الغضبية يقابلها النواحي النزوعية.

هذا ما يذكره صاحب كتاب «مدخل علم النفس» وهو الدكتور محمد خليفة بركات وهو لا شك متأثر بما كتبه علماء النفس من الغربيين المتأثرين بالفلسفة اليونانية مع أن ما ذكره أفلاطون يطفح به الإسلام ففي الحديث المصدر الثري نجد فيه مالا يذكر أمامه أفلاطون من تقسيم للنفس مما هو أحكم وأدق وما هو جدير ببحث خاص وإنما نجتزئ بإشارة عابرة تدل على أنَّ الحديث النبويَّ أشار إلى هذا التقسيم، ففي حديث ابن عمر رضي الله عنها إشارة إلى النفس الشهوانية:

«ثلاث مهلكات... فأما المهلكات فشح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه».

فالنفس الشهوانية قسَّمها الحديث مدققاً حيث جعلها في ثلاث دوائر: الدائرة الأولى الشح الذي تدعو إليه النفس الشهوانية للاتساع في شهواتها.

الدائرة الثانية الهوى المتَّبع وهو قطب النفس الشهوانيَّة فالنفس المنغمسة في الشهوانية منقادة بحسب الهوى، فالهوى المحرِّك هو النفس الشهوانية.

الدائرة الثالثة من النفس الشهوانيَّة الغرور النفسي فإنَّ منشأه ما تحبه النفس وتشتهيه من التعاظم والتعالي حتى يصبح المغترُّ بنفسه المعجب بها لا يرى لنفسه عيباً، ويحمل محاملها كلها على أنها الخير كله فلا محيد عنها ولو كانت لا تحمل في طياتها إلا الشر الصرف.

ومصيبة إعجاب المرء بنفسه في الهلاك تصل إلى الحد الأقصى إذا كان المعجب بنفسه من ذوي السلطان فإنه علاوة على اغتراره بنفسه هناك المزيفون المزينون للباطل الذين يبذلون كل جهد لهم في الوصول إلى تصوير الباطل حقاً والخطأ صواباً لذي السلطان توصلاً لأغراضهم وبلوغاً لأهدافهم.

والنفس الغضبية أشار الحديث النبويُّ بالنهي عنها كما ورد عن جارية بن قدامة السعدي قال: قلت للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: أوصني قال: «لا تغضب فردَّد عليه مرارا قال: لا تغضب».

قال جارية: ففكرت فإذا الغضب يجمعُ الشرَّ كله. أخرجه أحمد والحاكم عن جارية كما ذكر.

فالنفس الغضبية التي قسم النفس إليها أفلاطون هي نفس الشر، فالشر مبعثه الغضب فحين ننظر إلى هذا الحديث نجد أنَّ أفلاطون لم ينفرد بهذا التقسيم فهذان القسمان اللذان أشار إليها كانت إشارة الحديث إليها أعمق حيث أشار إلى السبب الحقيقي في تكوين كل نفس منها مع أنه أظهرها في مظهر تربوي تستسیغه العقول، وتقبل عليه النفوس فلم تكن الاشارة جافة بعيدة عن المعنى التربوي حتى تكون محل نظر، بل جاءت في صور لا تدع للشك محلاً.

من مميزات التربية النبويَّة:

إن الخصائص في التربية النبويَّة ذات جوانب مُتعددة مُختلفة في ملاءمة الظروف الإنسانيَّة، فما يظنُّه... الظّانون من أنَّه من مُشكل الحديث النبويّ حين يرون بعضاً من الأحاديث يتبادر منها أنها مُتباينة فيما بينها مع أنها لا تباين بينها وإنما بعض من تلك الأحاديث توجيه لبعض الإنسانيَّة والبعض الآخر توجيه لآخرين.

فالتربية النبويَّة آخذة مأخذ بلاغة القول فكما لكل مقام مقال، كذلك لكل صنف من الناس ما يخصُّه من التربية.

وبهذه المُراعاة استطاعت التربية النبويَّة أن تأخذ بأيدي أمم مختلفة وتجمعها في صعيد واحد وهو ما عجزت عنه المدنيَّة الحديثة، فهي رغم ما جنَّدته من مؤسسات لتجمع الأمم في صعيد واحد لم تستطع أن تصنع، مع أنَّ الإسلام حقق ذلك في أوقات لم تتمتع فيها الإنسانيَّة بوسائل التبليغ الموجودة اليوم: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: 63].

والإسلام بتربيته التي استطاعت أن تؤلِّف بين القلوب المتنافرة فيما مضى، هو اليوم في استطاعته أن يؤلف بينها حاضراً ومستقبلاً، إنَّه الدين القويم والصراط المستقيم.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم